

المنطلقات المعرفية والمنهجية لتصنيف العلوم عند ابن خلدون

بقلم: أ. أحمد الشريف بوساحة

جامعة محمد مين دباغين-سطف 2

ملخص: تدور الفكرة الأساسية لهذه المقالة، على المنطلقات الفكرية والمنهجية لتصنيف العلوم عند ابن خلدون، والتي تتضمن الأساس الفلسفي الذي أرسى عليه هيكله التصنيفي، ويتمحور السؤال حول مدى تجاوز ابن خلدون أصناف العلوم عند اليونان والغرب؟ وما هي الإضافة التي تميز بها؟، ومن خلال البحث تبين أنّ ابن خلدون أعاد ترتيب العلوم والمعارف حسب رؤيته الفكرية والعقدية؛ حيث جاءت العلوم سواء النقلية أم العقلية كبرنامج عملي وتعليمي ينعكس أساساً في سلوك المسلم، وليس كتصنيف فلسفي مجرد، وقيمة العلوم تكمن في خدمة الأغراض الدينية، كما أدخل ابن خلدون علماً جديداً في هيكله التصنيفي وهو علم العمران البشري.

Résumé:

L'idée principale, de cet article de recherche, concerne les points de départ intellectuels et méthodologiques pour la classification des sciences chez «Ibn Khaldoun», qui comprend le fondement philosophique sur lequel il a posé sa structure taxinomique, la question tourne autour la limite de dépassement d'"Ibn Khaldoun" des genres de sciences chez les Grecques et les Occidentaux? Quels est l'ajout qui l'a distingué?

Grâce à cette recherche il s'est avéré qu'"Ibn Khaldoun" a réarrangé les sciences et les connaissances selon sa vision intellectuelle et confessionnelle, puisque les sciences, scripturaires et intellectuelles, se sont avérés comme un programme d'action et d'enseignement qui se reflète principalement sur le comportement du musulman, mais pas comme une taxinomie philosophique abstraite. La valeur des sciences réside dans le service des fins religieux. "Ibn Khaldoun" a également introduit une nouvelle science dans sa structure taxinomique; c'est la science de l'(Omrane Bachari).

الكلمات المفتاحية: تصنيف العلوم، النسق الفلسفي، أساس التصنيف، العلوم في النسق التصنيفي، التكامل بين العلوم .

فاتحة الإشكال:

يعد "علم التصنيف" واحدا من أهم المباحث العلمية التي ازدهرت بشكل ملحوظ في الحضارة العربية الإسلامية، فقد أصبح في فترة وجيزة من انطلاق الحركة العلمية في المجتمع الإسلامي علما قائما بذاته، له مبادئه وأصوله وأهدافه، بالإضافة إلى مثاليه من العلماء والفلاسفة الذين اهتموا بالتعريف به، وذلك وفق تصور فلسفي معين.

ليس "علم التصنيف" علما وصفيا صرفا، يكتفي بإحصاء ما هو كائن من المعرفة البشرية، بل إنّ هذا الوصف التقريري يحمل في طياته غاية معيارية، توجه العقل إلى مواضيع المعرفة سواء على المستوى التربوي بالإرشاد إلى كيفية استيعاب العلوم وتمثلها، أو على المستوى الإبداعي بالتوجيه إلى المستجدات بحسب ما تقتضيه الحياة الإنسانية.

لقد ظل "علم التصنيف" يعكس الخصائص الفكرية والثقافية للبيئات التي تحتضنه والأعلام الذين عرفوا بالتأليف فيه، وخاصة عندما يتعلق الأمر بطور من أطوار التجديد. إنّ الصفة المنطقية لهذا العلم ترشحه لأن يكون مقياسا لدرجة الكشف عن الحياة العقلية للأمم والحضارات والشعوب.

ولقد اختلف بشأن "علم التصنيف" حول كونه جزءا من الدراسة يندرج ضمن عدد من التخصصات مثل: الفلسفة، والمكتبات، وتاريخ العلوم وفلسفة العلم. وبغض النظر عن كونه علما قائما بذاته أو جزءا من التفكير الفلسفي، فإن حقيقة هذا التخصص، تكمن في أبرز مهماته وهي تحديد المبادئ المعرفية الأولى، التي تتخلل العلوم جميعها، كما أنه يمثل الجانب النقدي للأسس والأنساق المعرفية المتعددة، سواء بالنظر بعضها إلى بعض أو كل على حدة، أو بالنظر إلى أنماط العلاقات وأشكال الارتباط التي تجمع بينها.

إنّ "علم تصنيف العلوم" موقف وجودي للإنسان فيما يراه حقيقة، هو ذاته، تلك الحقيقة التي تصوغ منها ونسقا يتناسب مع ذلك الموقف الذي يخدم المآل الذي يرسمه لنفسه.

ومن هنا فهو يسعى إلى الكشف عن حدود العلوم ومجالات عملها، والأساسات التي تقوم عليها، وبيان تقاطعها بحسب طبيعة موضوعاتها وغاياتها، فينصبغ عند المصنفين بنظرهم الإيديولوجية والمذهبية والعقدية، ومن هذا المنطلق هل استطاع ابن خلدون في تصنيفه تجاوز تصنيفات اليونان ومن سبقوه من العرب والمسلمين؟ أم سقط في تكرارهم؟ وما هو الجديد عنده في هذا الفن؟

ثانياً: منطلقات النسق الفلسفي عند ابن خلدون:

لقد انطلق ابن خلدون من جملة من المرتكزات (المقدمات) الأساسية لإرساء نظامه الفكري وتصوره العقدي الذي لا يزاوّل تفكيره في كل صغيرة وكبيرة، ومن بين هذه الأسس نورد إجمالاً ما يلي:

1- الله (الخالق):

هو أصل الوجود، "إعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي رد الأفعال كلها إليه وأفرده به كما قدمناه، وعرفنا أن هذا الإيمان نجأتنا عند الموت إذا حضرنا، لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود وهو إذ ذاك متعذر على إدراكنا ومن فوق طورنا، فكلفنا أولاً: اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين وإلا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير، ثم تنزيهه عن صفات النقص وإلا لشابه المخلوقين، ثم توحيد، وأنّ الله يعيدنا بعد الموت تكميلاً لعنايته بالإيجاد فنحن للبقاء السرمدي بعد الموت، ثم اعتقاد بعثة الرسل"¹، وهنا يكشف ابن خلدون عن حقيقة إيمانية عقلية بالغة الأهمية، وهي أن الوحي ضرورة عقلية ينادي بها العقل لشعوره بالعجز عن الإحاطة بالذات الإلهية، فالعقل النظري على حد تسمية ابن خلدون يعرف بوجود المطلق وهو في انتظار المساعدة من طرف "الوحي" "والعجز عن الإدراك إدراك"؛ إذ العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيرها وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها إذ لا فاعل غيره وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته وعلمنا به، إنما هو من

¹ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، (بيروت، دار الفكر، 2001)، ص 585 - 586.

حيث صدورنا عنه لا غير². ولا يعتقد أن ابن خلدون كان ذو نزعة جبرية³، تعطل الفعل الإنساني، وعدم قدرته على فهم الظواهر، بل هو يلتقي بتفكيره مع معطيات العلم الحديث الذي يوجه العقل في البحث عن وصف حدوث الظواهر وليس تفسير كنهها، فالعلم يجيب على أسئلة: كيف حدثت الظواهر؟ وليس لماذا حدثت الظواهر؟ أي تسلسل أسبابها إلى ما لا نهاية، بل هو الانسجام مع الروح العقلانية التجريبية والعقيدة الإسلامية.

إنّ عقلانية ابن خلدون على الرغم من إيمانه بالنبوة والوحي، لم يفعل كما فعل الغزالي؛ حيث أقام المعرفة الصوفية مقام المعرفة العقلية، ولا كما فعل ابن تيمية الذي هدم المنطق لحساب نزعة حسية مفرطة، ورفض التأويل العقلي لحساب تمسك بالنص شديد. إنّ ابن خلدون حينما يعلن أن البحث في ما وراء الطبيعة لا يجدي، وقد عمل في نفس الوقت على توسيع دائرة العمل في ميدان "الطبيعة" وميدان العمران الأرحب⁴.

2- الطبيعة (عالم الحوادث):

وهي تشتمل على ذوات محضة، كالعناصر وآثارها والمكونات الثلاثة عنها، التي هي: المعدن، والنبات، الحيوان، وهذه كلها متعلقات القدرة الإلهية، وأما الأفعال الحيوانية لغير البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر (العقل) الذي يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل؛ إذ الحيوانات إنما تدرك بالحواس ومدركاتها متفرقة خلية من الربط، لأن الربط لا يكون إلا بالفكر⁵. وأما الأفعال البشرية "ممنظمة ومرتبة، قصد الترتيب بين الحوادث بالطبع أو الوضع، فإذا قصد الفكر إيجاد شيء لا بد من التفطن إلى سببه أو علته أو شرطه، وهي على

² ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 583.

³ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصية والدولة، ط5، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1992)، ص86.

⁴ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، ص 87.

⁵ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 592.

الجملة مبادئه، فلا يتم فعل الإنسان في الخارج إلا بالفكر في هذه المرتبات، لتوقف بعضها على بعض، وهذا الفكر هو الخاصة البشرية التي يتميز بها البشر عن غيره من الحيوان"⁶.

3- العقل: لقد قسم "ابن خلدون" العقل الإنساني الذي خص الله الإنسان به عن سائر خلقه، إلى ثلاثة أنواع:

أ- **العقل التمييزي:** ويعبر عن المرحلة الأولى في العقل البشري ويكون العقل قبلها خلو من أي علم بالجملة، وهذه المرحلة يكون العقل بها عبارة عن هيولى قابلة لأن تصبح فكرا بالقوة يدرك ما حوله بفضل ما أعطي الإنسان من جوارح وأفئدة، ويوقع به أفعاله على انتظام⁷. وهنا يشير "ابن خلدون" إلى العقل الذي تحدثت عنه المدرسة التجريبية، وهو صفحة بيضاء لا شيء فيه، وهو معدود من الحيوانات لاحق في مبدئه في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة، وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر⁸. ويقول "ابن خلدون" أنظر إلى قوله تعالى: **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (النحل: 78). وقوله: **"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"** (العلق: 5).

ب- **العقل التجريبي:** وهو العقل الذي يقتنص به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه، كون الإنسان مدني بالطبع، لا يمكنه الحياة منفردا، ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه، وهو يحتاج إلى التعاون مع الآخرين يتطلب منه المفاوضة والمشاركة⁹.

وبالمشاركة قد تحدث المشاجرة والتنازع، والمؤالفة والصدقة، أو الحرب والسلام بين الأمم والقبائل، وما يحدث بين البشر يختلف عما يحدث بين الحيوان "الهمل" بفضل ما لهم

⁶ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 593.

⁷ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 599.

⁸ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 599.

⁹ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 594.

من فكر وعقل ينم عن وجوه سياسة وقوانين حكمية ينكبون فيها عن المفاصد إلى المصالح وعن القبيح إلى الحسن... بما نشأ عن العقل من ذلك عن تجربة صحيحة وعوائد معروفة بينهم¹⁰، والمعاني تحصل للإنسان نتيجة التعامل والتجربة والخبرة، ولا تكون بعيدة كل البعد عن الحس، ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له منها مقتنصا له بالتجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه، حتى يتعين له ما يجب وينبغي فعلا وتركها، وهكذا يكون الإنسان جاهلا بالذات، وعالما بالكسب¹¹.

ج- **العقل النظري**: وهو ما يحصل به تصور الموجودات غائبا وشاهدا كما هي عليه في الحقيقة، وهو العقل الإستنتاجي الذي يجرد المعاني والتصورات من لواحقها المحسوسة، وهو يأتي في مرحلة لاحقة لما سبقه من العقل التجريبي. فمن الملاحظ أن "ابن خلدون" يتدرج في بناء العقل حسب ملاحظة نمو الإنسان وتطوره، فالطفل لا يميز شيئا مع ولادته، ثم عن طريق التجربة يكتسب معارف ثم يطورها إلى أنساق فكرية.

ومن الواضح أن منطلقات النسق المعرفي لابن خلدون تناولت المحاور الكبرى لأي فلسفة شاملة كاملة من مواقف ونظريات حول الإلهيات (التوحيد) والطبيعة (عالم الحوادث) وكذلك الإنسان وقدراته المعرفية، ومدى الصدق الذي يستطيع أن يجوزه انطلاقا من داخل عقله أو من خارجه.

ثانيا: تصنيف العلوم عند ابن خلدون:

1- المؤلف الذي جاء فيه التصنيف:

خصص ابن خلدون، الباب السادس من الكتاب الأول في مقدمته (كتاب العبر)¹² تحت عنوان: في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من

¹⁰ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 594.

¹¹ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 599.

¹² "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" والمقدمة هي الجزء الأول من هذا الكتاب.

الأحوال وفيه مقدمة ولواحق¹³، وقد ابتداء ابن خلدون هذا الباب بقوله: "فالمقدمة في الفكر الإنساني الذي تميّز به البشر عن الحيوانات، واهتدى به لتحصيل معاشه، والتعاون عليه بأبناء جنسه والنظر في معبوده، وما جاءت به الرسل من عنده، فصار جميع الحيوانات في طاعته وملك قدرته وفضله به على كثير خلقه"¹⁴. ثم يقسم هذا الباب إلى ستين فصلا، لا يتسع المقام لذكرها، علما أنّها جميعا متعلقة بهذا البحث سواء من حيث هي مقدمات أو نتائج لعلم أصناف العلوم، فمثلا، يذكر في الفصل الأول: أنّ العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري، وفي الفصل الثاني: يذكر أنّ التعليم للعلم من جملة الصنائع وأنّ له مشاهير وأئمة يختصون به شأنه شأن الصنائع كلها، ثم يقرر في الفصل الثالث: أنّ العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارات، وبعد هذه المقدمات الثلاث، يصل إلى أهم الفصول بالنسبة إلى البحث الذي نحن بصدده وهو الفصل الرابع: في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد¹⁵.

ثم يخصص فصلا لكل صنف من العلوم في ثنايا الفصول الستين، يتناوله بالتعريف والتمييز بينه وبين العلوم المتقاربة معه، وعزله بالموضوع والغرض منه وأعلامه الذين ألقوا فيه وتقييم أعمالهم والإشارة إليها بالضعف أو القوة. وأحيانا مدارس تلك العلوم والفنون.

ومن أمثلة ذلك التفريق بين علم السحر وعلم الطلسمات، وكذلك علم السيميا وعلم أسرار الحروف وعلم الكلام والفلسفة بالفصل بين المسائل الإيمانية (العقائد) عن المسائل الفلسفية المتعلقة بعلم الإلهيات؛ حيث يتميز أحد الفنين عن الآخر¹⁶.

¹³ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 542.

¹⁴ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 542.

¹⁵ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 549.

¹⁶ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 591.

وذهب إلى حد التفريق بين علوم البشر وعلوم الملائكة وعلوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب، ولم يغفل ابن خلدون الحديث عن عوائق تحصيل العلوم والتي من بينها كثرة التأليف، ويجب تحديد المقاصد التي ينبغي اعتمادها في التأليف، وأن كثرة الاختصارات في العلوم مخلة بالتعليم، وقد وضع منهجا في تعليم العلوم الآلية، ولا يجب أيضا أن تفرّع فيها المسائل لأنها علوم غير مقصودة لذاتها¹⁷.

2- شكل التصنيف:

يخصص ابن خلدون فصلا من مقدمته لتصنيف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد؛ حيث يقول "اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلًا وتعلِيمًا هي صنفين¹⁸:"

– الصنف الأول: وهو الصنف الطبيعي في الإنسان ويهتدي إليه بفكره، وهو العلوم العقلية أو الحكمية.

– الصنف الثاني: فهي العلوم النقلية أو الوضعية، لكنها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال للعقل فيها.

أ- العلوم النقلية: وهي العلوم المستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة "التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئها للإفادة"¹⁹، ويقصد ابن خلدون بالواضع الشرعي الله سبحانه وتعالى وقد وضع هذه العلوم بمقتضى الحكمة والمصلحة التي هو أعلم بها منا. وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية، ودراستها واجبة على كل مسلم لأنها ضرورية

¹⁷ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 738.

¹⁸ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 549.

¹⁹ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 550.

لحياته لارتباطها بالدين. وقد بلغت هذه العلوم الشرعية من التنظيم والاكتمال والتنقيح مبلغاً تاماً مع حسن التنسيق، وكان لكل فن رجال يرجع إليهم وأوضاع يستفاد منها. ويشرح ابن خلدون في تقسيم هذا الصنف من العلوم إلى فروع هي: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلوم الحديث، وعلم أصول الفقه، وعلم الخلافات، وعلم الجدل، وعلم الفقه، وعلم الكلام، وعلم التصوف، وعلم تفسير الرؤيا، وهذه العلوم مقصودة لذاتها، ثم يلحق بها العلوم التي هي آلة على سبيل التمهيد لها وهي: علوم اللسان العربي كالنحو واللغة والبيان والأدب²⁰.

ويرى ابن خلدون أنّ هذه العلوم لا يجب التوسع فيها، بقوله: "وأما العلوم التي هي غيرها مثل العربية والمنطق وأمثالهما فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل، لأن ذلك مخرج لها عن المقصود"²¹. كما يؤكد ابن خلدون أنه قبل الدخول في المعرفة يجب إجادة العلوم اللسانية لأنها تسبق العلوم الشرعية، فهي تضع قوانين اللغة، كما يجب إجادة المنطق لأنه يسبق العلوم العقلية لأنه يضع قوانين الفكر. ويعتّل ابن خلدون عدم التبحر في علوم الآلة لقصر العمر، والواجب عدم تضييع العمر إلا في تحصيل العلوم المقصودة لذاتها²².

ب- العلوم العقلية: وهي العلوم الحكيمة الفلسفية التي هي طبيعية للإنسان، من حيث إنه ذو فكر، فهي غير مختصة بملة، بل بوجه النظر، فأهل الملل كلهم يستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليفة²³، وهي أربعة أساسية تتفرع إلى جملة من الفروع:

– علم المنطق.

²⁰ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 753.

²¹ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 739.

²² ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 739.

²³ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 629.

- العلم الطبيعي: علم الطب، وعلم الفلاحة، وعلم السحر، وعلم الطلسمات، وعلم الكيمياء.

- العلم الإلهي.

- علم التعاليم: علم العدد، علم الهندسة، علم الهيئة، علم الموسيقى.

وقد عقب ابن خلدون على هذا التصنيف بفصول نقدية تناول فيها بعض العلوم بالإبطال ومنها الفلسفة وصناعة النجوم وصناعة الكيمياء، والسحر والطلسمات .

لقد رفض ابن خلدون الفلسفة اليونانية المتعلقة بما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) والعلم الإلهي لأن ذواتها مجهولة رأساً، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها، لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية المشخصة غير ممكن، ونحن لا ندرك الذوات الروحانية²⁴.

وقد اعترض ابن خلدون على قدرة وسائل المعرفة في الفلسفة اليونانية على إدراك حقيقة الغيب؛ حيث زعموا أن الوجود كله، الحسي منه وما وراء الحسي تدرك أدواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية، وأن تصبح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع²⁵، وقد وضعوا لذلك قانوناً يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه المنطق، وقد أكد ابن خلدون أنّ هذا لا يصلح إلا للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات المحسوسة، وعلى الرغم من ذلك لم تكن نتائجه دوماً صحيحة فقد تناقضت نتائجه مع الواقع لأنه يعتمد صورة الفكر²⁶. وما فائدته إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين. ويحذّر ابن خلدون من الإنكباب على علوم الأوائل وهو خلو من علوم الملة، فقلّ أن يسلم لذلك من معاطبها²⁷.

²⁴ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 710.

²⁵ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 707.

²⁶ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 709.

²⁷ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 713.

أما في علمي السحر والطلسمات فقد عرفهما بأحدهما: استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات وهذه العلوم مهجورة من الشرائع لما فيها من الضرر، ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره²⁸. كما يضم علم أسرار الحروف إلى الطلسمات، وقد ظهر على يد الغلاة من المتصوفة في الملة وجنودهم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر، وزعموا أن الكمال الإسمائي مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب²⁹.

ولم يقبل ابن خلدون علم الكيمياء كعلم ينظر في المادة التي يتم بها، كون الذهب والفضة صناعة³⁰، أي قلب المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، واتفق ابن خلدون مع ابن حزم وابن عبد البر في ذلك وخالفهم ابن تومرت بإمكان ذلك.

وقد أبطل ابن خلدون أيضا صناعة النجوم، هذه الصناعة التي يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل أوضاع الأفلاك، والكواكب دالة على ما سيحدث.

ويرى ابن خلدون والمتقدمون أنّ معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة، أمر تقصر له الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله؛ إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتكررة، وهذا يحتاج في تكراره آمادا وأحقاب متطاولة³¹، وقد نسب بعض الضعفاء هذه التأثيرات للوحي والأنبياء، وقد أبطل ذلك بقوله: هو رأي فائل، وأن تعلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يتعرضون للأخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله³².

²⁸ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 655.

²⁹ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 664.

³⁰ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 695.

³¹ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 714.

³² ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 714.

والملاحظ أن ابن خلدون يتناول هذه العلوم المذمومة وهي التي تخرج عن دائرة العقل والشرع بالنقد والرفض انطلاقاً من فكرة التوحيد عنده، وهو ما سنراه في أساسه التصنيفي لاحقاً.

3- أساس التصنيف:

بدا واضحاً أنّ تصدير ابن خلدون للعلوم الشرعية بالقرآن وعلومه والحديث وعلومه، ثمّ إتباع ذلك بعلوم الفقه والعقيدة وعلوم اللغة، ثمّ تجلية ما جاء في هذه العلوم من حيث المبنى والمعنى، إن هو إلاّ تحديد لأهداف تتناسب مع حياته كما رسمتها عقيدته، ويبدو أنّ ابن خلدون مرتبط بالقرآن والحديث على سبيل النزعة التأصيلية المرجعية، وهي إشارة إلى أن هذه العلوم ينبغي أن يكون البحث فيها بالحقيقة الدينية الشرعية³³.

لقد ظهر بوضوح عند "ابن حزم" التفريق بين العلوم المحمودة والعلوم المذمومة وذلك بمقياس الشرع، وبطريقة غير مباشرة عند "ابن خلدون"؛ حيث أخرج من دائرة الشرع والعقل تلك العلوم التي تؤدي إلى عرقلة أغراض الدين، مثل السحر والشعوذة والتنجيم. وقد عبّر ابن خلدون عن ذلك: "وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله باباً واحداً محظوراً لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمننا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا"³⁴.

وفي نفس هذا السياق علق "ابن خلدون" على علم الفلاحة بقوله:

"كان النظر فيه عندهم (الأوائل) عامّاً في النبات من جهة غرسه وتنميته، ومن جهة خواصه وروحانياته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهياكل المستعمل ذلك كله في باب السحر، ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب (الفلاحة النبطية) وكان باب

³³ عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، ط1 (بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1992)، ص67.

³⁴ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 662-663.

السحر مسدودا والنظر فيه محظورا، اقتصرنا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه، وما يعرض له في ذلك، وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة"³⁵.

وهذه الملاحظة التي يوردها "ابن خلدون" تبين حقيقة الأساس الذي من أجله يوضع العلم كمصنف في إطار الشريعة الإسلامية، وذلك هو الغرض العام الذي من أجله وجدت العلوم الإسلامية وهو خدمة الحقيقة الدينية.

وقد استشعر "ابن خلدون" ذلك بوضوح بأن العلوم النقلية هي التي تكشف عن الحقيقة الدينية أساسا، وأن العلوم العقلية عرضة للانزلاق، ولذلك ينبغي تصويبها ونقدها حتى تؤدي إلى نفس الغرض، وهذا ما طرأ على علم المنطق والفلاحة لما أدخلنا إلى البيئة الإسلامية.

4- علاقات العلوم في النسق الخلدوني:

إنّ المتأمل في تصنيف "ابن خلدون" للعلوم والمعارف والذي جاء في مقدمته الشهيرة يلاحظ أنه لا يقتصر على إدراج العلوم الأساسية فقط، وإنما وضع المقدمات الضرورية في عملية تحصيل العلوم التي لا يمكن أن تتم إلا بها، فهو يدرج العلوم التالية كأساس للعلوم الأخرى في وحدة متألّفة.

إنّ ما ورد عند "ابن حزم" و"ابن خلدون" من تقسيم للعلوم إلى علم عقلي وعلم شرعي لم يكن تقسيما على أساس التناقض أو التنافر بينهما موضوعا أو غاية، بل هو تقسيم على أساس وسيلة المعرفة³⁶، أي فصل منهجي بغية البحث والدراسة، ولذلك نجد "ابن خلدون" يجعل لفهم القرآن وعلومه والحديث وعلومه، وجوب إتقان علوم اللسان من لغة، ونحو، وبيان وآداب. ويتكلّم أيضا عن أصول الفقه بأنه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرا وأكثرها فائدة، وهو النظر في الأدلة الشرعية ثم يربطها لأصولها وهو القرآن ثم

³⁵ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 652.

³⁶ عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، ص 67.

السنة المبينة له³⁷. كما يدرج علم الفرائض والمعاملات تحت العلوم العددية "وفيه تأليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب... وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به إلى الحقوق في الوراثة بوجوده صحيحة يقينية"³⁸.

وقد بين ابن خلدون حقيقة التواصل بين العلوم الشرعية تمهيدا لإيرادها مرتبة في التصنيف؛ حيث يقول "أصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو الإجماع أو الإلحاق، فلا بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أولا، وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله، واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات، ثم بإسناد السنة إلى صاحبها، والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث... ثم أصول الفقه إلى الفقه ثم العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم... إلخ. إلى أن يصل إلى العلوم اللسانية كمقدمات لتلك العلوم³⁹، فهذا التواصل في استحداث العلوم في الملة كان للحاجة الملحة، ومنه جاءت العلوم النقلية والعقلية كبرنامج تعليمي عملي لا لتصنيف فلسفي مجرد.

وقد أبرز النجار حقيقة تواصل العلوم وتكاملها في نسقها الداخلي عند ابن خلدون؛ حيث يقول: "أما العلوم العقلية المقتبسة فإنها وضعت أيضا في نطاق الهيكل العام في سياق كانت فيه متواصلة مع العلوم الشرعية متكاملة معها، حتى أنّ ابن خلدون لا يتردد في أن يضع علم الفرائض وهو فرع من الفقه ضمن العلوم العددية، وهي من العلوم المقتبسة- كمظهر للقاء بين الفقه والحساب مبينا ذلك بقوله "فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء

³⁷ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 573.

³⁸ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 572.

³⁹ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 550.

من الفقه، وهو أحكام الوراثة من الفروض والمواقيت والإقرار والإنكار، والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها، وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السّهمان⁴⁰.

خلاصة:

لقد جعل ابن خلدون الحقيقة الدينية مدار العلوم والمعارف، فالعلوم التي لا تنسجم مع هذه الحقيقة فهي محظورة وخارج النسق، ولا تفاضل بين العلوم في الرتبة أو الشرف إلا ما تعلق بموضوع التوحيد (الذات الإلهية) وكل العلوم ضرورية له، وتضافر كل العلوم النقلية والعقلية من أجل خدمة الشريعة، وأساس تصنيف العلوم عنده هو خدمة الأغراض الدينية، وقد أدخل "ابن خلدون" علما جديدا أصيلا إلى هيكل أصناف العلوم لم يكن موجودا من قبل وهو: علم العمران البشري الذي بتوسعه يتوسع العلم وبانكماشه ينكمش العلم ويتقلص.

⁴⁰ عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، ص 69.